الاختبار

للكاتبة الأمريكية: (أنجيليكا غيبس)

(قصة تسلط الضوء على دمامة التمييز العنصري)

في ظهيرة ذاك اليوم الذي أجرت «ماريان» اختبارها الثاني في قيادة السيارات، رافقتها السيدة «ايريكسون».

ـ قد يكون من المستحسن أن يكون معك من هو أسنّ منك!

قالت السيدة «إيريكسون» فيما دلفت «ماريان» إلى مقعد السائق بجانبها:

ـ ربما كان لحديث ابن عمك «بيل» في المرة السابقة أثر كبير في شعورك بالقلق والتوتر... ما كان ليتوقف عن الحديث ولو لوهلة.

ـ نعم سيدتي ـ ردت «ماريان» بصوت رقيق لا لكنةً فيه ـ قد يجدون أنه من الأفضل اصطحاب شخص أبيض!

ـ كلا... لا أعتقد أن الأمر كذلك! ردت السيدة «ايريكسون» ثم طفقت تتأمل الفتاة من طرف خفي.

كانت «ماريان» تقود السيارة في هدوء وسلاسة خلال أشجار الضواحي الظليلة... إبّان أحد أشد أيام شهر «يوليو» حرارة ولهيباً وعندما وصلتا إلى الشارع الرئيس هالهما ما يعج به من عربات اتخذت إلى الشاطئ طريقاً:

ـ أتريدين أن أتولى القيادة؟ سألتها السيدة «إيريكسون» ثم تابعت: يسرني ذلك إن كنت تشعرين بالتوتر.

على أن الفتاة هزت رأسها بالنفي. وشرعت السيدة «إيريكسون» في تأمل يديها السمراوين... البارعتين، ثم فكرت ـ للمرة الألف ـ كيف سيكون عليه حال منزلها لو لم تكن «ماريان» تعمل لديها، وكيف احتملت فيما مضى من السنين... تلك الكوكبة التي لا تنتهي من مدبرات المنزل البِيْضْ واللاتي رأين في القيام بأعمال المنزل إهانة وتحقيراً لا يعدله سوى العناية بالأطفال.

ـ كم هي رائعة قيادتك «ماريان» ـ قالت ـ حاولي ألا تفكري فيما حدث لك في المرة السابقة يا عزيزتي ـ فانزلاق السيارة فوق منحدر في يوم ما طر قد يحدث لأمهر قائدي السيارات!

ـ أعتبر راسبةً إن ارتكبت أربعة أخطاء ـ قالت «ماريان» ـ ولا أتذكر ارتكابي تلك الأخطاء التي سجلها الممتحن ضدي.

ـ يقال أن «البقشيش» قد ينفع في مثل هذه الحالات! قالت في شيء من الشك.

ـ كلا سيدتي! ـ ردت «ماريان» ـ كان هذا سيعقد الأمور أكثر! أنا على يقين من ذلك.

عند الإشارة انعطفت السيارة يميناً إلى شارع جانبي ثم صعدت تلاً صغيراً قبل أن تتوقف بمحاذاة رصيف... خلف صف من السيارات الواقفة. لم يكن المفتشون قد وصلوا بعد:

ـ هل أحضرت الأوراق؟ سألتها السيدة «إيريكسون» وأخرجت «ماريان» الأوراق من حقيبتها ـ ترخيص القيادة ـ واستمارة السيارة ثم... شهادة ميلادها.

واستكانت الاثنتان أخيراً إلى كآبة الانتظار ورتابته.

ـ أوّاه «ماريان» سأكون سعيدة عندما توصلين الأولاد إلى مدارسهم كل يوم! سيكون هذا بديعاً.

ورفعت «ماريان» رأسها عن ثلة من المقررات المطلوبة التي كانت تقرأ فيها.

ـ ستغدو شؤون البيت مريحةً أكثر إن تحقق ذلك! أليس كذلك ـ قالت!

ـ آه «ماريان»... ليت باستطاعتي رد ولو نصف جميلك!

ـ ما هذا الذي تقولينه سيدتي؟!.

والتقت نظراتهما... تعكس حبًّا عميقاً وتقديراً متبادلاً!

وتوقفت سيارتان رسميتان عبر الشارع فنزل بخفة منهما مفتشان يرتديان ملابس عسكرية ـ واشتدت قبضة «ماريان» على المقود ـ

ـ ذاك هو الذي أسقطني في الامتحان المرة السابقة. قالت مشيرة إلى مفتش تبدو عليه مظاهر الغطرسة والخيلاء وهو يلقي بأوامره إلى أحد السائقين:

ـ آه... سيدة «إيريكسون»!

ـ ما هذا الذي تقولينه «ماريان»؟

وتبادلتا ذات النظرة مجدداً على أن الابتسامة المرسومة على شفاههما تلك المرة كانت واهنةً بعض الشيء... ثمة خيال لها كان يروح في وجل ويغدو.

ولم يكن الممتحن ذات الشخص... بل كان لطيفاً مرحاً في منتصف العمر تقريباً... ظل يوزع ابتساماتٍ واسعة وهو يمر بإصبعه عبر الأوراق المطلوبة ـ وعندما شرعت السيدة «إيريكسون» في مغادرة السيارة قال لها:

ـ يمكنك البقاء معنا إن أردت! لا مانع لدي.

وتملكتها الحيرة والتعجب لوهلة قبل أن تقول:

ـ كلا أيها المفتش قد أربك «ماريان» بمجيئي معكما... إنها ماهرة في قيادة السيارات.

ـ بالتأكيد ـ قال المفتش الممتحن ثم اتخذ مقعده بجوار الفتاة قبل أن يقول بحدة:

obeikandl.com

ـ انعطفي يساراً عند الزاوية «ماندي لو» ـ قال ناطقاً اسمها الرسميّ ـ ومن هناك... عند الرصيف كانت عينا السيدة «ايريكسون» تودعهما والسيارة تنطلق في سلاسة بهما أعلى الشارع.

وسجل المفتش بعض الملاحظات في كتاب أسود صغير ثم سألها.

ـ العمر؟

ـ سبعة وعشرون.

ـ وصلت إذاً سناً تجعلك تجرّين وراءك حفنة من الزنوج الصغار؟ هاه؟ ولم تجب!.

ـ انعطفي يساراً عند هذه الزاوية، وأوقفي السيارة بين الشاحنة وسيارة «البيويك» الخضراء.

كانت المسافة بين السيارتين قصيرة لكنها نجحت في الوقوف بينهما دون مناورات تذكر.

ـ هل قدت سيارة من قبل ـ «ماندي لو»؟

ـ نعم سيدي ـ لدي رخصة من «بنسيلفينيا»... منذ سنوات ثلاث!

ـ ولماذا ترغبين في قيادة سيارة؟

ـ كيما أقوم بإيصال أبناء السيدة التي أعمل مدبرة منزل لديها إلى مدارسهم!

ـ لا شك بأنك لا تنوين من وراء ذلك الخروج لملاقاة أحد الشباب ليلاً! سألها... ثم داهمته نوبة ضحك وهي تهز رأسها نفياً.

ـ دعيني أر ما ستفعلين! انعطفي يساراً ثم استديري في منتصف المفترق القادم. قال ذلك ثم طفق يصفّر لحن إحدى أغنياته المفضلة.

هذا اللحن يجعلك تحنين إلى مسقط رأسك! قال. وانعطفت بهما السيارة في خفة ورشاقة عائدة إلى المكان الذي جاءا منه:

obeikandl.com

ـ كلاّ فقد ولدت في «سكرانتون» «بنسيلفينيا» قالت. وتصنع الاندهاش ثم قال:

ـ لستِ إذاً من الجنوب ـ كنت أعتقد ذلك!

ـ كلا سيدي ـ قالت «ماريان».

ـ فانعطفي إذاً ناحية الشارع العام ودعينا نر مهارتك في تجاوز الكثافة المرورية.

وتبعا سرباً من السيارات حتى بلغا جسراً خرسانيًّا عالياً يتقوس فوق قضبان القطارات.

ـ اقرئي تلك اللوحة المعلقة في نهاية الجسر.

ـ تقدم بحذر ـ خَطِرٌ في الأجواء الرّطبة ـ قالت بثقة.

ـ باستطاعتك أن تقرئي بمهارة أيتها الحدوة العتيقة أين تعلمت ذلك؟

ـ نلت شهادتي الجامعية العام الماضي ـ صوتها آنذاك لم يكن ذا نبرات ثابتة.

حينما جاوزت السيارة منحنى الجسر انفجر المفتش ضاحكاً.. ضحك متواصل مجلجل أعاقة عن مواصلة إعطاء التعليمات:

ـ توقفي هنا ـ قال ماسحاً سيل دموع.. الضحك ـ ثم ابدئي ثانيةً ـ تخرجت «ماندي» من الجامعة! يا له من أمر مضحك! قال. وتوقفت السيارة عند حافة الرصيف ـ وحيدّت ناقل الحركة فجعلته في وضع «اللاتعشيق» ثم سحبت فرملة الطوارئ وانتظرت قليلاً قبل أن تعيد تعشيق السيارة. على أن قدمها انزلقت وهي ترخي فرملة الطوارئ ثانية... فتوقف المحرك فجأة.

ـ ماذا حدث يا مدبرة المنزل؟ ـ أنسيت شهادتك؟

ـ تبًّا لكِ ـ صاحت «ماريان» وأعادت تشغيل السيارة التي اهتزت فجأة. وفقد المفتش روح الدعابة والمزاج فجأةً فقال آمراً:

ـ عودي إلى نقطة الانطلاق! إن سمحت ثم وضع عشوائياً أربع علامات خطأ على ورقة التقييم الخاصة بها.

كانت السيدة «إيريكسون» بانتظارهما حيث تركاها وما أن أوقفت «ماريان» السيارة حتى قفز المفتش منها ووجهه بلون الأرجوان:

ـ ماذا حدث؟ سألته السيدة «إيريكسون» في قلق وظلت ماريان قابعة خلف المقو... محملقةً في أعماق اللاشيء واهتزت شفتها السفلي فبادرتها سيدتها:

ـ آه «ماريان»! مرة أخرى؟

وهزت المسكينة رأسها.

ـ أجل بيد أن الأمر يختلف قليلاً هذه المرة. قالت ذلك قبل أن تنزلق إلى المقعد الأيمن للسيارة في هدوء.

obeikandl.com